المنتقى من إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم

فهد بن عبدالعزيز بن عبدالله الشويرخ

حقوق الطبع والنشر لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين...أما بعد:

فمن أهم مصنفات العلامة ابن القيم رحمه الله، كتابه " إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان " ويدور الكتاب حول موضوعين رئيسين:

الأول: أمراض القلوب وعلاجها

الثاني: مكايد الشيطان التي يكيد بها ابن آدم

وقد أثنى على هذا الكتاب عدد من أهل العلم والفضل:

* قال الشيخ علي حسن عبدالحميد: من بين التواليف النافعة التي هي كالبراهين الساطعة...وهو كتاب أحلى من إنسان العين في عين الإنسان لمؤلفه ابن القيم وكتابه هذا من أنفع الكتب وأجودها ومن أحسن المؤلفات وأفضلها.

* وقال الشيخ محمد عزيز شمس: من أهم الكتب التي ألفت في بابه ومن أهم..وأعظم مؤلفات الإمام ابن القيم رحمه الله وأجلها وهو كتاب نادر في بابه..وقد أثنى عليه العلماء وتداولوه فيما بينهم ونظموا في مدحه شعراً وفضلوه على غيره من الكتب في هذا الباب وحثوا طالب العلم على قراءته واقتنائه.

* وقال الشيخ سليم عيد الهلالي فقد قال: معرفة خطوات الشيطان..ننصح للقراء أن يطالعوا إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم رحمه الله...فإنه.نفيس..في هذا الباب.

* وقال الشيخ إبراهيم عمر السكران: الكتاب مشحون بالفوائد والأبحاث والاستطرادات العقدية والفقهية والإيمانية.

والكتاب كما ذكر الشيخ مشحون بالاستطرادات، ولذا فقد انتقيتُ منه مباحث، لا تغنى عن أصل الكتاب، أسأل الله الكريم أن ينفع بها ويبارك فيها.

الباب الأول

في انقسام القلوب إلى صحيح وسقيمٍ وميتٍ

قال رحمه الله: لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها، انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة:

فالقلب الصحيح هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال تعالى: ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون* إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩] والقلب السليم...الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله.

والقلب الثاني: ضدُّ هذا، وهو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه....الهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائسه، والغفلة مركبه..لا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد، الدنيا تسخطه وترضيه.

مخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سُم، ومجالسته هلاك.

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة، فله مادتان، تمده هذه مره مرة، وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد، والكبر، والعجب، وحب العلو في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه

الباب الثاني

في ذكر حقيقة مرض القلب

قال رحمه الله: مرضه هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره للحق وإرادته له، فلا يرى الحق حقاً ، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، ويفسد به إرادته له، فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له وهو الغالب، ولهذا يفسر المرض الذي يعرض له، تارة بالشك والريب، كما قال مجاهد وقتادة في قوله تعالى: ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ [البقرة:١٠] أي: شك، وتارة بشهوة الزنى، كما فسر به قوله تعالى: ﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ [الأحزاب:٣٢] فالأول مرض الشبهة، والثاني مرض الشهوة.

والقلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقدر على دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك، وهو يدفعه بقوته وصحته.

الباب الثالث

في انقسام أدوية أمراض القلب إلى قسمين: طبيعة وشرعية

قال رحمه الله: مرض القلب نوعان: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال...كمرض الجهل، ومرض الشبهات والشكوك، ومرض الشهوات، وهذا النوع هو أعظم النوعين ألماً، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم...وهذا أخطر لمرضين وأصعبهما، وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

والنوع الثاني: مرض مؤلم في الحال، كالهم والغم والحزن والغيظ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب، ويدفع موجبها مع قيامها،.

وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن، ويشقى بما يشقى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيراً بما يتألم به القلب، ويُشقيه ما يشقيه.

فأمراض القلب التي تزول بالأدوية الطبعية من جنس أمراض البدن، وهذه لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت، وأما أمراضه التي لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية، فهي التي توجب له الشقاء والعذاب الدائم إن لم يتداركها بأدويته المضادة لها، فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء.

فالغيظ يؤلم القلب ودواؤه في شفاء غيظه، فإن شفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضاً من حيث ظن أنه يشفيه...وكذلك الغم والهم والحزن أمراض للقلب، وشفاؤها بأضدادها من الفرح والسرور، فإن كان بحق اشتفى القلب وصحَّ وبرئ من مرضه، وإن كان بباطل توارى ذلك واستتر ولم يزل، وأعقبه أمراضاً هي أصعب وأخطر.

(٧)-

الباب السادس

أنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون إلهه وفاطره وحده هو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه

قال رحمه الله: فليس في الكائنات شيء غير الله سبحانه يسكن القلب إليه، ويطمئن به. ويأنس به. ويتنعم بالتوجه إليه! ومن عبد غيره سبحانه، وحصل له به نوع منفعة ولذة، فمضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته، وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ، وكما أن السماوات والأرض لو كان فيهما إله غيره سبحانه لفسدتا، كما قال تعالى: ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء:٢٢] فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله فسد فساداً لا يرجي صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود من قلبه، ويكون الله وحده إلهه ومعبوده الذي يحبه ويرجوه ويخافه، ويتوكل عليه، وينيب إليه.

فأوامره سبحانه، وحقه الذي أوجبه على عباده، وشرائعه التي شرعها لهم، هي قرة العيون، ولذة القلوب، ونعيم الأرواح وسرورها، وبه سعادتها وفلاحها، وكمالها في معاشها ومعادها،

ومن أبلغ العذاب في الدنيا تشتيت الشمل وتفرق القلب، وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عُشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب، على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه.

الباب السابع

في أن القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه

قال رحمه الله: قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ﴾ [يونس:٥٧] وقال: ﴿ ونُنزلُ من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ [الإسراء:٨٢] جماع أمراض القلب..أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين:

ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يُبين لحق من الباطل، فتزول أمراض الشُّبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه...فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه.

فمن رزقه الله ذلك أبصر الحق والباطل عياناً بقلبه، كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم بين علوم لا ثقة بها، وإنما هي آراء وتقليد، وبين ظنون كاذبة لا تغني من الحق شيئاً، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها، وبين علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها.

وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريراً وأحسن تفسيراً...فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعه الشبه والشكوك، والفاضل الذكي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك.

ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكين.

(٩)-

وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة، بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عما يضرُّه، فيصير القلب محباً للرشد، مبغضاً للغي، فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فُطِرَ عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية.

فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه، ويؤيده ويفرحه، ويسره وينشطه.

في زكاة القلب

قال رحمه الله: الزكاة في اللغة: هي النماء والزيادة في الصلاح وكمال الشيء، يقال: زكا الشيء إذا نما، وقال تعالى: ﴿ خُذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ [التوبة:١٠٣] فجمع بين الأمرين الطهارة والزكاة لتلازمهما، فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الردئية في البدن...فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة، زكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت، فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته، كما قال تعالى: ﴿ قُل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ﴾ [النور:٣٠] فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

ولهذا كان غضُّ البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر، جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته..فإن من ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه.

الفائدة الثانية: نور القلب وصحة الفراسة...فمن غض بصره عما حرمه الله عليه عوضه الله من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات، أطلق الله نور بصيرته وقلبه فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغُضَّه عن محارم الله.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته.

-(١١)-

الباب التاسع

في طهارة القلب من أدرانه ونجاسته.

قال رحمه الله: قال الله تعالى: ﴿ يا أيها المدثر * قُم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر ﴾ [المدثر:١-٤] وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هاهنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأخلاق والأعمال.

وقوله تعالى: ﴿ أولئك الذين لم يرد الله أن يُطهر قلوبهم ﴾ [المائدة:٤١] عقيب قوله: ﴿ سماعون للكذب ﴾ إلى قوله: ﴿ يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴾ [المائدة:٤١] يدلُّ على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبَّهُ ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذّبه إن قدر على ذلك وإلا حرفه، كما تصنع الجهمية بآيات الصفات وأحاديثها، يردون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب لحقائقها، وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله وأسمائه وصفاته، فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يُرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طهرت لما تعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله، كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني.

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله.

فالقلب الطاهر-لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث-لا يشبع من القرآن، ولا يتغذي إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة، فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

-(١٢)

ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه، ولهذا حرم الله سبحانه الجنة على من في قلبه

نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين، ولهذا يقال لهم: ﴿ طبتم فادخلوها خالدين ﴾ [الزمر:٧٣] أي ادخلوها بسبب طيبكم، والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ [النحل:٣٢] فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث.

فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا، فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت كسبية عارضة دخلها بعدما يتطهر من تلك النجاسة، ثم يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيُهذبون ويُنقون من بقايا بقيت عليهم، قصرت بهم عن الجنة، ولم توجبوا لهم دخول النار، حتى إذا هُذّبوا ونقوا أُذن لهم في دخول الجنة.

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلى عليه حتى يتطهر، وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفاً على الطيب والطهارة فلا يدخلها إلا طيب طاهر، فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب، ولذا شرع للمتوضئ أن يقول عقيب وضوئه: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين، فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء، فلما اجتمع له طهوران صلح للدخول على الله، والوقوف بين يديه ومناجاته.

-(١٣)

فصل: نجاسة الشرك والزنى واللواط

قال رحمه الله: قد وسم الله سبحانه الشرك والزنى واللواط بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب، وإن كانت مشتملة على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ﴾ [التوبة:٢٨] وقوله في حق اللوطية: ﴿ ولوطاً أتيناه حُكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوءٍ فاسقين ﴾ [الأنبياء:٧٤] وقالت اللوطية: ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أُناس يتطهرون ﴾ [النمل:٥٦] فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم الأخابث الأنجاس، وأن لوطاً وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له، وقال تعالى في حق الزناة: ﴿ الخبيثاتُ للخبيثين والخبيثون للخبيثات ﴾ [النور:٢٦]

والنجس قد يؤذي برائحته، وقد يؤذي بملابسته، وإن لم تكن له رائحة كريهة.

والمقصود أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة، وتارة تكون معنوية باطنة، فيغلب على الروح والقلب الخبثُ والنجاسة، حتى إن صاحب القلب الحي ليشمُّ من تلك الروح والقلب رائحةً خبيثة يتأذي منها، كما يتأذى من يشمَّ رائحة النتن، ويظهر ذلك كثيراً في عرقه، حتى يجد لرائحة عرقه نتناً، فإن نتن القلب والروح يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره، والعرق يفيض من الباطن، ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب الناس عرقاً.

فالنفس النجسة الخبيثة يقوى خبثها ونجاستها حتى يبدو على الجسد، والنفس الطيبة بضدها، فإذا تجردت وخرجت من البدن وُجِدَ لهذه كأطيب نفحة مسكٍ وجدت على وجه الأرض، ولتلك كأنتن ريح جيفةٍ وجدت على وجه الأرض.

في علامات مرض القلب وصحته

قال رحمه الله: كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، كماله في حصول ذلك الفعل منه، ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف، ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خلق له من المعرفة بالله، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوة.

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يُوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة يألم بورود القبيح عليه، ويألم بجهله بالحق بحسب حياته.

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها، فيُؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه.

وتارة يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه، ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره...ومتى رجع من الطريق، ولم يتحمل مشقتها، ولاسيما إن عدم الرفيق، واستوحش من الوحدة، وجعل يقول: أين ذهب الناس؟ فلي بهم أسوة.

وهذه حال أكثر الخلق، وهي التي أهلكتهم.

ـ(١٥)

البصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده، إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول، ﴿ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

وحسن أولئك رفيقاً ﴾ [النساء:٦٩] فتفرد العبد في طريق طلبه دليل على صدق الطلب

والمقصود أن من علامات أمراض القلوب عدولها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة، وعدولها عن دوائها النافع إلى دائها الضار، فهنا أربعة أمور: غذاء نافع، ودواء شاف، وغذاء ضار، وداء مهلك.

فالقلب الصحيح: يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك.

وأنفع الأغذية: غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية: دواء القرآن، وكل منهما فيه الغذاء والدواء.

ومن علامات صحته أيضاً أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة، ويحل فيها، حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، جاء إلى هذه الدار غريباً، يأخذ منها حاجته، ويعود إلى وطنه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمر: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك من أهل القبور)

وكلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة، وقرب منها، حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها، حتى يصير من أهلها.

ومن علامات صحة القلب: أن لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره، إلا بمن يدله عليه، ويُذكر به، ويذاكره بهذا الأمر...وإذا فاته ورده وجد لفواته ألماً أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

-(١٦)

ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه، حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، لذي لا حياة له ولا فلاح ولا

نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف، فذكره: قُوتُه وغذاؤه، ومحبته والشوق إليه: حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه: داؤه، والرجوع إليه: دواؤه.

ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همُّه وغمُّه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقُرة عينه وسرور قلبه.

ومن علامات صحته: أن يكون أشحَّ بوقته أن يذهب ضائعاً من أشد الناس شحاً بماله.

ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منة الله عليه فيه، وتقصيره في حق الله.

فهذه ستة مشاهد، لا يشهدها إلا القلب الحيُّ السليم.

وبالجملة فالقلب الصحيح: هو الذي همه كله في الله، حبه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابه، والخلوة به آثر عنده من الخلطة، إلا حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له، قُرةُ عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتاً إلى غيره، تلا عليها: ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة* ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ [الفجر:٢٧-٢٨]

-(١٧)

الباب الحادي عشر

في علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه

قال رحمه الله: هذا الباب كالأساس والأصل لما بعده من الأبواب، فإن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس.

وهلاك القلب من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها واتباع هواها.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وقال ميمون بن مهران : لا يكون العبد تقياً حتى يكون لنفسه أشدّ محاسبة من الشريك لشريكه، وقال الحسن : إنما خفّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

وقد مُثلت النفسُ مع صاحبها بالشريك في المال، فكما أنه لا يتم مقصود الشركة من الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولاً، ثم بمطالعة ما يعمل، والإشراف عليه ومراقبته ثانياً، ثم بمحاسبته ثالثاً، ثم بمنعه من الخيانة إن اطلع عليه رابعاً، فكذلك النفس يشارطها أولاً على حفظ الجوارح السبعة التي حفظها هو رأس المال، والربح بعد ذلك، فمن ليس له رأس مال، فكيف يطمع في الربح ؟

وهذه الجوارح السبعة – وهي العين، والأذن الفم، اللسان، الفرج، اليد، الرجل– وهي مركب العطب والنجاة، فمنها عطب من عطب بإهمالها وعدم حفظها، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها، فحفظها أساس كل خير، وإهمالها أساس كل شر، قال تعالى: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ [النور ٣٠] وقال: ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ [الإسراء:٣٧] وقال تعالى: ﴿ قُل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ [الإسراء:٥٣] ـ(١٨)

وقال تعالى: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ [الإسراء:٣٦] وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا

قولاً سديداً ﴾ [الأحزاب: ٧٠] وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ ﴾ [الحشر:١٨]

فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها، فلا يُهملها، فإنه إن أهملها لحظة وقعت في الخيانة ولا بدّ، فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة، حتى يذهب رأس المال كله.

ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً...وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً.

ويعينه عليها أيضاً معرفته أن ربح هذه التجارة سُكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها دخول النار، والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم.

فصل: من أضرار عدم محاسبة النفس

قال رحمه الله: وأضر ما عليه: الإهمال، وترك المحاسبة، والاسترسال، وتسهيل الأمور، وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذا حال أهل الغرور يُغمض عينيه عن العواقب، ويمشي الحال، ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب، وأنِس بها، وعسر عليه فطامها، ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد، وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا تقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ ﴾ [الحشر:١٨]

(١٩)-

فصل: فوائد محاسبة النفس

قال رحمه الله: وفي محاسبة النفس عدة مصالح:

منها: الاطلاع على عيوبها، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها مقتها في ذات الله.

ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله عليه، ومن لم يعرف حق الله عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جداً.

فمن أنفع ما للقلب: النظر في حق الله على العبد، فإن ذلك يورثه مقت نفسه، والإزراء عليها، ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه أن يُطاع ولا يُعصى، وأن يُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يكفر.

فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه عَلِم عِلمَ اليقين أنه غير مودٍّ له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إن أُحيل على علمه هلك.

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك، ينظرون في حقهم على الله، ولا ينظرون في حق الله عليهم، ومن ها هنا انقطعوا عن الله، وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه

الباب الثاني عشر
في علاج مرض القلب بالشيطان

قال رحمه الله: هذا الباب من أهم أبواب الكتاب وأعظمها نفعاً، والمتأخرون من أرباب السلوك لم يعتنوا به اعتناءهم بذكر النفس وعيوبها وآفاتها، فإنهم توسعوا في ذلك، وقصروا في هذا الباب، ومن تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذُكرت في قوله: ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ [يوسف:٥٣]واللوامة في قوله ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ [القيامة:٢] وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ [النازعات: ٤٠] وأما الشيطان فذُكر في عدة مواضع..فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره، فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته فهي مركبه، وموضع سره، ومحل طاعته،وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله: (ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا) وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين الاستعاذة من الأمرين، في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، قال: يا رسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت؟ قال: قل: اللهم عالم الغيب والشهادة! فاطر السماوات والأرض! رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ من شر نفسي وشر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أُجرّه إلى مسلم، قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك.

-(٢١)

الباب الثالث عشر

في مكايد الشيطان التي يكيد بها ابن آدم

قال رحمه الله: قال تعالى إخباراً عن عدوه إبليس، لما سأله عن امتناعه عن السجود لآدم، واحتجاجه بأنه خير منه، وإخراجه من الجنة، أنه سأله أن ينظره، فأنظره، ثم قال عدو الله: ﴿ فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ [الأعراف:١٦-١٧] قال جمهور المفسرين والنحاة: حذف "على" فانتصب الفعل، والتقدير: لأقعدنّ لهم على صراطك...وهو الطريق الموصل إلى الله...فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه، يقطعه على السالك.

قال قتادة: أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

وقال تعالى: ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليُغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خُسراناً مُبيناً* يعدهم ويُمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ [النساء:١١٧-١٢٠] وقوله: ﴿ ولأضلنهم ﴾ يعني عن الحق، ﴿ لأمنيهم ﴾

قال ابن عباس: يريد تسويف التوبة وتأخيرها،

وقال الكلبي: أمنيهم أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث،

وقيل: أمنيهم طول البقاء في نعيم الدنيا، فأُطيل لهم الأمل فيها، ليؤثرها على الآخرة.

-(٢٢)

﴿ يعدهم ويُمنيهم ﴾ فوعده ما يصل إلى قلب الإنسان، نحو: سيطول عمرك، وتنال من الدنيا لذتك، وستعلو على أقرانك، وتظفر بأعدائك، والدنيا دول، ستكون لك

كما كانت لغيرك، ويُطوِّل أمله، ويعده بالحُسنى على شركه ومعاصيه، ويمنيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها.

فيعده الباطل الذي لا حقيقة له وهو الغرور، ويمنيه المحال الذي لا حاصل له.

ومن تأمل أحوال أكثر الناس وجدهم متعلقين بوعده وتمنيته وهم لا يشعرون، يعد الباطل، ويمني المحال، والنفس المهينة التي لا قدر لها تغتذي بوعده وتمنيته.

من مكايد الشيطان: أنه يورد الإنسان الموارد ثم يتخلى عنه

قال رحمه الله: ومن كيده للإنسان: أنه يُورده الموارد التي يُخيل إليه أن فيها منفعته، ثم يُصدرُهُ المصادر التي فيها عطبه، ويتخلى عنه ويُسلمه ويقف يشمت به، ويضحك منه، فيأمره بالسرقة والزنى والقتل ويدل عليه ويفضحه قال تعالى: ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقيبه وقال إني بريئ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ [الأنفال:٤٨] فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدر في صورة سراقة بن مالك، وقال: إني جار لكم من بني كنانة أن يقصدوا أهلكم وذراريكم بسوء، فلما رأى عدو الله جنود الله من الملائكة نزلت لنصر رسوله فرَّ عنهم وأسلمهم، كما قال حسان:

دلاهم بغرور ثُم أسلمهم إن الخبيث لمن والاه غرّار

وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنى بها ثم بقتلها، ثم دل أهلها عليها، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود، فلما فعل فر عنه وتركه. ـ(٢٣)

وفيه أنزل الله سبحانه: ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريئ منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ [الحشر:١٦] وهذا السياق لا يختص بالذي ذُكرت عنه هذه القصة، بل هي عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر،

لينصره ويقضي حاجته، فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: ﴿ إني كفرتُ بما أشركتمون من قبل ﴾ [إبراهيم:٢٢] فأوردهم شرَّ الموارد، وتبرأ منهم كلَّ البراءة.

من مكايد الشيطان: التخويف بأوليائه

قال رحمه الله: ومن كيد عدو الله: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدوهم، ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا سبحانه عنه بهذا، فقال: ﴿ إنما ذلكم الشيطان يُخوف أوليائه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران:١٧٥] المعنى عند جميع المفسرين: يُخوفكم بأوليائه، قال قتادة: يُعظمهم في صدوركم.

ولهذا قال: ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم.

من مكايد الشيطان: سحر العقل

قال رحمه الله: ومن مكايده: أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزين له الفعل الذي يضره، حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء له، وينفره من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له، حتى يخيل له أنه يضره.

فلا إله إلا الله! كم فُتن بهذا السحر من إنسان! وكم حال بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان! وكم جمَّل الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة.

(٢٤)-

من مكايد الشيطان: أنه كاد للأبوين بالأيمان الكاذبة

قال رحمه الله: وأول كيده ومكره: أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة، قال تعالى: ﴿ فوسوس لهما الشيطان لِيُبدي لهما ما

وُرِيَ عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما من الناصحين * فدلاهما بغرور ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢] فالوسوسة: حديث النفس، والصوت الخفي.

آدم وحواء...كذبهما عدو الله وغرهما وخدعهما، بأن سمى تلك الشجرة شجرة الخلد، فهذا أول المكر والكيد، ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحبُّ النفوس مسمياتها.

وورّث عدو الله هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين، كما كان المنافقون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءوه: ﴿ نشهدُ إنك لرسول الله ﴾ [المنافقون: ١]

قال تعالى: ﴿ فدلاهما بغرور ﴾ أي: جرأهما على أكل الشجرة.

من مكايد الشيطان: أمره إما بتفريط وتقصير، أو مجاوزة وغلو

قال رحمه الله: أنه يُشامّ النفس، حتى يعلم أي القوتين اغلب عليها: قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟ فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام، أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به ، وثقله عليه، وهون عليه تركه، حتى يتركه جملة، أو يقصر فيه ويتهاون به.

وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة، أخذ يقلل عنده المأمور به، ويُوهمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة.

-(٢٥)

فيقصر بالأول، ويتجاوز بالثاني، كما قال بعض السلف: ما أمر الله سبحانه بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر.

وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل منهم جداً الثابت على الصراط الذي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

فقوم قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد بالوسواس

وقوم قصر بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس، حتى أضروا بأبدانهم وقلوبهم، وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا الحاجة، فأضروا بقلوبهم وأبدانهم.

وقصر بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات، كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلم العلم، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام.

وكذلك قصر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم، دون العمل به.

وقصر بقوم حتى قالوا: إن الله سبحانه لا يُشفِّع أحداً في أحد البتة، ولا يرحم أحداً بشفاعة أحدٍ، وتجاوز بآخرين حتى زعموا أن المخلوق يشفع عنده بغير إذنه، كما يشفع ذو الجاه عند الملوك ونحوهم.

وقصّر بقوم حتى نفوا حقائق أسماء الرب تعالى وصفاته وعطلوه منها، وتجاوز بآخرين حتى شبهوه بخلقه ومثلوه بهم.

-(٢٦)

وقصر بقوم حتى عادوا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلوهم، واستحلوا من حرمتهم، وتجاوز بقوم حتى ادعوا فيهم خصائص النبوة من العصمة وغيرها، وربما ادعوا فيهم الإلهية.

كذا قصر باليهود في المسيح حتى كذبوه، ورموه وأمه بما برأهما الله منه، وتجاوز بالنصارى حتى جعلوه ابن الله، وجعلوه إلهاً يعبد مع الله.

وقصر بقوم حتى أخملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا إليها، وعدوها فضلاً أو فضولاً، وتجاوز بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها، ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح.

وهذا باب واسع جداً، لو تتبعناه لبلغ مبلغاً كثيراً، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة.

من مكايد الشيطان: إيقاع جهال المتصوفة في الأباطيل والترهات

قال رحمه الله: ومن كيده: ما ألقاه إلى جُهَّال المتصوفة من الشطح والطامَّات، وأبرزه لهم في قالب الكشف من الخيالات، فأوقعهم في أنواع الأباطيل والترهات، وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلات، وأوحى إليهم أن وراء العلم طريقاً إن سلكوه أفضى بهم إلى كشف العيان، وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن، فحسن لهم رياضة النفوس وتهذيبها، وتصفية الأخلاق، والتجافي عما عليه أهل الدنيا، وأهل الرياسة والفقهاء، وأرباب العلوم، والعمل على تفريغ القلب وخُلُوِّه من كل شيء، حتى ينتقش فيه الحق بلا واسطة تعلم، فلما خلا من صورة العلم الذي جاء به الرسول نقش فيه الشيطان بحسب ما هو مستعد له من أنواع الباطل، وخيله للنفس حتى جعله كالمشاهد كشفاً وعياناً، فإذا أنكره عليهم ورثة الرسل قالوا: لكم العلم الظاهر ولنا الكشف الباطن، ولكم ظاهر الشريعة وعندنا باطن الحقيقة ـ(٢٧)

فلما تمكن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة والآثار، كما يسلخ الليل من النهار، ثم أحالهم في سلوكهم على تلك الخيالات، وأوهمهم أنها من الآيات البينات، وأنها من قِبَل الله سبحانه إلهامات، وتعريفات، فلا تُعرضُ على السنة والقرآن، ولا

تُعامل إلا بالقبول والإذعان، فلغير الله – لا له– سبحانه ما يفتح عليهم الشيطان من الخيالات والشطحات وأنواع الهذيان.

وكلما ازدادوا بُعداً وإعراضاً عن القرآن وما جاء به الرسول كان هذا الفتح في قلوبهم أعظم.

من مكايد الشيطان: تحسينه لأرباب الزهد العمل بهاجسهم دون الشرع

قال رحمه الله: ومن كيده: أنه يحسن إلى أرباب التخلي والزهد والرياضة العمل بهاجسهم وواقعهم، دون تحكيم أمر الشارع، ويقولون: القلب إذا كان محفوظاً مع الله كانت هواجسه وخواطره معصومة من الخطأ!

وهذا من أبلغ كيد العدو فيهم، فإن الخواطر والهواجس ثلاثة أنواع: رحمانية، وشيطانية، ونفسانية، كالرؤيا، فلو بلغ العبد من الزهادة والعبادة ما بلغ فمعه شيطانه ونفسه، لا يفارقنه إلى الموت، والشيطان يجرى منه مجرى الدم، والعصمة إنما هي للرسل صلوات الله وسلامهم عليهم، الذين هم وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومن عداهم يصيب ويخطئ، وليس بحجة على الخلق.

وقد كان سيد المحدَّثين المُلهمين عمر بن الخطاب، يقول الشيء، فيردُّه عليه من هو دونه، فيتبين له الخطأ، فيرجع إليه، وكان يعرض هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة، ولا يلتفت إليها، ولا يحكم بها، ولا يعمل بها.

-(٢٨)

وهؤلاء الجهال يرى أحدهم أدنى شيء، فيُحكم هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة، ولا يلتفت إليهما، ويقول: حدثني قلبي عن ربي، ونحن أخذنا عن الحي الذي لا يموت، وأنتم أخذتم عن الوسائط، ونحن أخذنا الحقائق، وأنتم أخذتم الرسوم، وأمثال ذلك من الكلام الذي هو كفر وإلحاد، وغاية صاحبه أن يكون جاهلاً يُعذر

بجهله، حتى قيل لبعض هؤلاء: ألا تذهب فتسمع الحديث من عبدالرزاق ؟ فقال: ما يصنع بالسمع من عبدالرزاق من يسمع من الملك الخلاق؟!

وهذا غاية الجهل، فإن الذي سمع من الملك الخلاق موسى بن عمران كليم الرحمن، وأما هذا وأمثاله فلم يحصل لهم السماع من بعض ورثة الرسل، وهو يدعى أنه يسمع الخطاب من مُرسله، فيستغني به عن ظاهر العلم، ولعل الذي يخاطبه هو الشيطان، أو نفسه الجاهلة، أو هما مجتمعين ومنفردين.

ومن ظن أنه يستغنى عما جاء به الرسول، بما يُلقى في قلبه من الخواطر والهواجس، فهو من أعظم الناس كفراً وكذلك إن ظن أنه يكتفي بهذا تارة وبهذا تارة.

فما يلقى في القلوب فلا عبرة به ولا التفات إليه، إن لم يعرض على ما جاء به الرسول ويشهد له بالموافقة، وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان.

من مكايد الشيطان: أمره بلزوم زي واحد ومكان معين للصلاة

قال رحمه الله: ومن كيده: أمرهم بلزوم زيٍّ واحد، ولبسة واحدة، وهيئة مشيئة معينة، وشيخ معين وطريقة مخترعة، ويفرض عليهم لزوم ذلك.بحيث يلزمونه كلزوم الفرائض، فلا يخرجون عنه، ويقدحون فيمن خرج عنه ويذمُّونه، وربما يلزم أحدهم موضعاً مُعيناً للصلاة لا يصلي إلا فيه، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن يوطن الرجل المكان للصلاة كما يوطن البعير.

-(٢٩)

وكذلك ترى أحدهم لا يصلى إلا على سجادة، ولم يصل رسول الله صلى الله عليه وسلم على سجادة قط، ولا كانت السجادة تُفرش بين يديه، بل كان يصلي على الأرض، وربما سجد في الطين، وكان يصلي على الحصير، فيصلي على ما اتفق بسطه، فإن لم يكن ثمة شيء صلى على الأرض.

من مكايد الشيطان: الوساوس

قال رحمه الله: ومن كيده الذي بلغ به من الجهال ما بلغ: الوسواس الذي كادهم به في أمر الطهارة والصلاة عند عقد النية، حتى ألقاهم في الآصار والأغلال، وأخرجهم عن اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخيل إلى أحدهم أن ما جاءت به السنة لا يكفى، حتى يضم إليه غيره، فجمع لهم بين الظن الفاسد، والتعب الحاضر، وبطلان الأجر أو تنقيصه.

ولا ريب أن الشيطان هو الداعي إلى الوسواس، فأهله قد أطاعوا الشيطان، ولبوا دعوته، واتبعوا أمره، ورغبوا عن اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريقته، حتى أن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اغتسل كاغتساله، لم يطهر ولم يرتفع حدثه.

ولولا العذر بالجهل لكان هذا مشاقَّةً للرسول، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلكم يتوضأ بالمد...ويغتسل بالصاع.

والموسوس يرى أن ذلك القدر لا يكفيه لغسل يديه.

وصح عنه أنه توضأ مرة مرة، ولم يزد على ثلاث، بل أخبر أن: (من زاد عليها فقد أساء وتعدى وظلم) فالموسوس مسيء مُتعدٍّ ظالم بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف يتقرب إلى الله بما هو مسيء به، متعدٍّ فيه لحدوده ؟

-(٣٠)

من مكايد الشيطان: الفتنة بالقبور

قال رحمه الله: ومن أعظم مكايده التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يرد الله فتنته: ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور، حتى آل الأمر فيها أن عبد أربابها من دون الله، وعُبدت قبورهم، واتخذت أوثاناً، وبُنيا عليها

الهياكل، وصُورت صور أربابها فيها، ثم جعلت تلك الصور أجساداً لها ظل، ثم جُعلت أصناماً، وعبدت مع الله.

وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح، كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً * ومكروا مكراً كباراً * وقالوا لا تذرن إلهتكم ولا تذرن وداً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً * وقد أضلوا كثيراً ﴾ [نوح: ٢١-٢٤]

قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمدُ فعبدوهم.

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل، وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها: مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول صلى الله عليه وسلم: (أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله.

فجمع في هذا الحديث بين التماثيل والقبور.

-(٣١)

فسبب عبادة يغوث ويعوق ونسر واللات إنما كانت من تعظيم قبورهم، ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم.

قال شيخنا: وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور، هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن

النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين...فإن الشرك بقبر رجل صالح الذي يُعتقد صلاحه أقربُ إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر.

ولهذا تجد أهل الشرك كثيراً يتضرعون عندها، ويخشعون ويخضعون، ويعبدونهم بقلوبهم عبادةً لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد.

فلأجل هذه المفسدة حسم النبي صلى الله عليه وسلم مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً، وإن لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد.

فالصلاة عند القبور منهي عنها...فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك: الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها، فقد تواترت النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم بالنهى عن ذلك، والتغليظ فيه.

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي لم يقم منه: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أبيائهم مساجد) ولولا ذلك لأُبرز قبره، غير أنه خُشي أن يُتخذ مسجداً.[متفق عليه]

وقولها: " خُشي " هو بضم الخاء، تعليلاً لمنع إبراز قبره.

-(٣٢)

فصل: من مفاسد اتخاذ القبور أعياداً

قال رحمه الله: ومن ذلك اتخاذها عيداً...قال شيخ الإسلام قدس الله روحه: قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتخاذه عيداً، فقبر غيره أولى بالنهى، كائناً من كان.

في اتخاذ القبور أعياداً من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ما يغضب لأجله كلُّ من في قلبه وقار لله، وغَيرة على التوحيد، وتهجين وتقبيح للشرك.

فمن مفاسد اتخاذها أعياداً: الصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها واستلامها، وتعفير الخدود على ترابها، وعبادة أصحابها، والاستعانة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الديون، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات، التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم.

فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد، مضاهاةً لبيوت الله.

ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل.

ونهى أن تتخذ عيداً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر.

وأمر بتسويتها، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي، قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته.

-(٣٣)

وفي صحيحه أيضاً عن ثمامة بن شُفيٍّ قال: كنا مع فضالة بن عُبيد بأرض الروم بردوس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسوي، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها.

وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين ويرفعونها من الأرض ويعقدون عليها القباب

ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه كما روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تجصيص القبر وأن يقعد عليه و يبنى عليه.

ونهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو داود في سننه، عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها.

قال الترمذي: " حديث حسن صحيح "

وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن.

ونهى أن يزاد عليها غير ترابها، كما روى أبو داود من حديث جابر أيضاً: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يُجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه.

وهؤلاء يزيدون عليه – سوى التراب – الآجُر والأحجار والجصّ.

والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور، والمتخذينها أعياداً، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم محادُّون لما جاء به.

وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها، وهو من الكبائر، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

-(٣٤)

فصل: الأسباب التي أوقعت عباد القبور في الفتنة بها

قال رحمه الله: فإن قيل: فما الذي أوقع عباد القبور في الافتتان بها، مع العلم أن ساكنيها أموات، لا يملكون لهم ضراً، ولا نفعاً، ولا موتاً، ولا حياة ولا نشوراً ؟

قيل: أوقعهم في ذلك أمور:

منها: الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله بل جميع الرسل من تحقيق التوحيد، وقطع أسباب الشرك، فقل نصيبهم جداً من ذلك، ودعاهم الشيطان إلى الفتنة، ولم يكن

عندهم من العلم ما يُبطل دعوته، فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل، وعصموا بقدر ما عندهم من العلم.

ومنها: أحاديث مكذوبة مُختلفة، وضعها أشباه عُباد الأصنام من المقابرية على رسول الله صلى الله عليه وسلم، تناقض دينه، وما جاء به، كحديث: (إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور) وحديث: (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر نفعه) وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الإسلام، وضعها المشركون، وراجت على أشباههم من الجهال الضلال.

ومنها: حكايات حُكيت لهم عن تلك القبور: أن فلاتاً استغاث بالقبر الفلاني في شدة، فخلص منها، وفلان دعاه أو دعا به في حاجة، فقُضيت له.

وعند السدنة والمقابرية من ذلك شيء كثير يطول ذكره، وهم من أكذب خلق الله على الأحياء والأموات، والنفوس مولعة بقضاء حوائجها، وإزالة ضروراتها، وتسمع بأن قبر فلان ترياق مُجرب، والشيطان له تلطف في الدعوة، فيدعوهم أولاً إلى الدعاء عنده، فيدعو العبد عنده بحُرقة وانكسار وذلة، فيجيب الله دعوته لما قام بقلبه لا لأجل القبر..فيظن الجاهل أن للقبر تأثيراً في إجابة تلك الدعوة.

-(٣٥)

والله سبحانه يجيب دعوة المضطر ولو كان كافراً وقد قال تعالى: ﴿كُلا نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ [الإسراء:٢٠] وقد قال الخليل: ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ [البقرة:١٢٦] فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ فليس كل من أجاب الله دعاه يكون راضياً عنه ولا محباً له ولا راضياً بفعله

فصل: ما نصبه للناس من الأزلام والأنصاب

قال رحمه الله: ومن أعظم مكايده: ما نصبه للناس من الأنصاب والأزلام التي هي من عمله، وقد أمر الله تعالى باجتناب ذلك، وعلق الفلاح باجتنابه، فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ [المائدة: ٩٠] فالأنصاب كل ما نُصب يُعبد من دون الله من حجر، أو شجر، أو وثن، أو قبر،

وأما الأزلام: فقال ابن عباس: هي قداح كانوا يستقسمون بها في الأمور، أي يطلبون بها علم ما قسم لهم.

والمقصود أن الناس قد ابتُلوا بالأنصاب والأزلام، فالأنصاب للشرك والعبادة، والأزلام للتكهُّن، وطلب عِلم ما استأثر الله به، هذه للعلم، وتلك للعمل، ودين الله سبحانه مضاد لهذا وهذا، والذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم إبطالهما، وكسر الأنصاب والأزلام.

(٣٦)-

فصل: القلوب إذا أعرضت عن السنن وقعت في البدع

قال رحمه الله: اعلم أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن، فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور معرضين عن طريقة من فيها هديه وسنته، مشتغلين بقبره عما أمره به ودعا إليه، وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هو باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم، وسلوك طريقتهم، دون عبادة قبورهم، والعكوف عليها واتخاذها أعياداً.

وإنما اشتغل كثير من الناس بأنواع من العبادات المبتدعة، التي يكرهها الله ورسوله، لإعراضهم عن المشروع أو بعضه، وإن قاموا بصورته الظاهرة فقد هجروا حقيقة المقصود منه، وإلا فمن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه، عارفاً بما اشتملت عليه من الكلم الطيب والعمل الصالح، مُهتماً بها كل الاهتمام، أغنته عن الشرك، وكلُّ من قصر فيها أو في بعضها تجد فيه من الشرك بحسب ذلك.

ومن أصغى إلى كلام الله بقلبه وتدبره وفهمه، أغناه عن السماع الشيطاني الذي يصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وينبت النفاق في القلب، وكذلك من أصغى إليه وإلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بكليته، وحدث نفسه باقتباس الهدى والعلم منه لا من غيره، أغناه عن البدع والآراء والتخرصات والشطحات والخيالات، التي هي وساوس النفوس وتخيلاتها.

(٣٧)-

من مكايد الشيطان: سماع الغناء

قال رحمه الله: ومن مكايد عدو الله ومصايده التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماع المكاء والتصدية، والغناء بالآلات المحرمة، الذي يصد القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان، فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رقية اللواط والزنى، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى، كاد به الشيطان النفوس

المبطلة، وحسنه لها مكراً منه وغروراً، وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه، فقلبت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجوراً.

مزامير الشيطان أحبُّ إليهم من استماع سور القرآن، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما كرك له ساكناً، ولا أزعج له قاطناً، ولا أثار فيه وجداً، ولا قدح فيه من لواعج الشوق إلى الله زنداً، حتى إذا تلي عليهم قرآن الشيطان وولج مزموره سمعه، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاعتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت. فيا أيها الفاتن المفتون! والبائع حظَّه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسرٍ مغبون! هلَّا كانت هذه الأشجان عند سماع القرآن ؟ وهذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد؟ وهذه الأحوال السَّنيّات عند تلاوة السور والآيات ؟

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي في كتابه في تحريم السماع:

أما مالك فإنه نهى عن الغناء، وعن استماعه...وسئل عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء، فقال: إنما يفعله عندنا الفساق.

-(٣٨)

وأما أبو حنيفة فإنه يكره الغناء، ويجعله من الذنوب.

وأما الشافعي فقال: إن الغناء لهو مكروه، يُشبه الباطل والمحال، ومن استكثر منه فهو سفيه تُرد شهاته.

وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه، وأنكروا على من نسب إليه حله.

وأما مذهب الإمام أحمد فقال عبدالله ابنه: سألت أبي عن الغناء. فقال: الغناء يُنبتُ النفاق في القلب.

فصل: سماع الغناء من المرأة الأجنبية

قال رحمه الله: وأما سماعه من المرأة الأجنبية أو الأمرد فمن أعظم المحرمات وأشدها فساداً.

فصل: الغناء ينبت النفاق في القلب

قال رحمه الله: عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، قال: الغناء يُنبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع، والذكر يُنبت الإيمان في القلب كما يُنبت الماء الزرع.

فاعلم أن للغناء خواص لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق، ونباته فيه كنبات الزرع بالماء،فمن خواصه: أنه يلهي القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره، والعمل بما فيه، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبداً، لما بينهما من التضاد، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى، ويأمر بالعفة، ومجانبة شهوات النفوس، وأسباب الغي وينهى عن اتباع خطوات الشيطان والغناء يأمر بضد ذلك كله ويحسنه ويُهيج النفوس إلى شهوات الغي، فيثير كامنها، ويزعج قاطنها، ويحركها إلى كل قبيح

(٣٩)-

من مكايد الشيطان: الحيل، والمكر، والخداع

قال رحمه الله: ومن مكايده التي كاد بها الإسلام وأهله: الحيل، والمكر، والخداع، الذي يتضمن تحليل ما حرمه الله، وإسقاط ما فرضه، ومضادته في أمره ونهيه، وهي من الرأي الباطل الذي اتفق السلف على ذمه.

فإن الرأي رأيان: رأي يوافق النصوص، وتشهد له بالصحة والاعتبار، فهو الذي اعتبره السلف وعملوا به.

ورأي يخالف النصوص، وتشهد له بالإبطال والإهدار، فهو الذي ذمُّوه وأنكروه.

وكذلك الحيل: نوعان، نوع يُتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به، وترك ما نهى عنه والتخلص من الحرام، وتخليص الحق من الظالم المانع له، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومُعلمه.

ونوع يتضمن إسقاط الواجبات، وتحليل المحرمات، وقلب المظلوم ظالماً والظالم مظلوماً، والحق باطلاً والباطل حقاً، فهذا النوع الذي اتفق السلف على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض.

قال الإمام أحمد رحمه الله: لا يجوز شيء من الحيل في إبطال حق مسلم.

والمخادعة هي الاحتيال والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه، لتحصيل مقصود المخادع.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه جاءه رجل، فقال: إن عمي طلق امرأته ثلاثاً، أيُحلها له رجل ؟ فقال: من يُخادع الله يخدعه.

وسمى الصحابةُ من أظهر عقد التبايع ومقصودُه به الربا خداعاً لله، وهم المرجوع إليهم في هذا الشأن، والمعول عليهم في فهم القرآن.

-(٤٠)

بلغ عمر رضي الله عنه أن فلاناً باع خمراً، فقال: قاتل الله فلانا! ألم يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قاتل الله اليهود! حُرمت عليهم الشحوم، فجملوها وباعوها) [متفق عليه] قال الخطابي: جملوها معناه: أذابوها حتى تصير ودكاً، فيزول عنها اسم الشحم...وفي هذا الحديث بطلان كل حيلة يُحتالُ بها للتوصل إلى المحرم، وأنه لا يتغير حكمه بتغير هيئاته، وتبديل اسمه.

و..المفسدة العظيمة التي اشتمل عليها الربا، لا تزول بتغيير اسمه من الربا إلى المعاملة، ولا يتغير صورته من صورة إلى صورة، والحقيقة معلومة متفق عليها بينهما

قبل العقد، يعلمها من قلوبهما عالم السرائر، فقد اتفقا على حقيقة الربا الصريح قبل العقد، ثم غيرا اسمه إلى المعاملة، وصورته إلى التابع الذي لا قصد لهما فيه البتة، وإنما هو حيلة ومكر، ومخادعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

وأي فرق بين هذا وبين ما فعلته اليهود من استحلال ما حرم الله عليهم من الشحوم بتغير اسمه وصورته ؟ فإنهم أذابوه حتى صار ودكاً، وباعوه، وأكلوا ثمنه، وقالوا: إنما أكلنا الثمن، لا المثمن، فلم نأكل شحماً.

ومن المعلوم أن الربا لم يُحرم لمجرد صورته ولفظه، وإنما حُرَّم لحقيقته ومعناه ومقصوده...فتغيير صور المحرمات وأسمائها مع بقاء مقاصدها وحقائقها زيادة في المفسدة التي حُرمت لأجلها، مع تضمنه لمخادعة الله تعالى ورسوله، ونسبة المكر والخداع والغش والنفاق إلى شرعه ودينه وأنه يحرم الشيء لمفسدةٍ ويبيحه لأعظم منها، ولهذا قال أيوب السختياني: يخادعون الله كما يخادعون الصبيان، لو أتوا الأمر على وجهه كان أهون.

-(٤١)

فالمحتال بالباطل يعامل بنقيض قصده شرعاً وقدراً، وقد شاهد الناس عياناً أنه من عاش بالمكر مات بالفقر.

وقد اطردت سُنته الكونية سبحانه في عباده، بأنَّ من مكر بالباطل مُكر به، ومن احتال احتيل عليه، ومن خادع غيره خُدع، قال الله تعالى: ﴿ إن المنافقين يُخادعون الله وهو خادعهم ﴾ [النساء:١٤٢] وقال تعالى: ﴿ ولا يحيقُ المكرُ السيئُ إلا بأهله﴾ [فاطر:٤٣] فلا تجد ماكراً إلا وهو ممكُور به، ولا مخادعاً إلا وهو مخدوع، ولا محتالاً إلا وهو محتال عليه.

فصل: الشريعة جاءت بسد الذرائع إلى المحرمات

قال رحمه الله: وإذا تدبرت الشريعة وجدتها قد أتت بسد الذرائع إلى المحرمات، وذلك بعكس فتح باب الحيل الموصلة إليها، فالحيل وسائل وأبواب إلى المحرمات، وسد الذرائع عكس ذلك...فنهى عن قتال الأمراء والخروج على الأئمة وإن ظلموا وجاروا، ما أقاموا الصلاة سداً لذريعة الفساد العظيم، والشر الكبير بقتالهم، كما هو الواقع، فإنه حصل بسبب قتالهم والخروج عليهم من الشرور أضعاف ما هم عليه، والأمة في يقايا تلك الشرور إلى الآن.

فصل: ما شرعه الله لنا من الحنفية السمحة ما يغني عن طرق المكر والاحتيال

قال رحمه الله: الله سبحانه أغنانا بما شرعه لنا من الحنفية السمحة، وما يسره من الدين على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وسهَّله للأمة عن الدخول في الآصار والأغلال، وعن ارتكاب طُرق المكر والخداع والاحتيال، كما أغنانا عن كل باطل ومحرم وضار، بما هو أنفع لنا من الحق، والمباح النافع.

-(٤٢)

ونحن نعلم علماً لا نشك فيه أن الحيل التي تتضمن تحليل ما حرمه الله تعالى، وإسقاط ما أوجبه، لو كانت جائزة لسنها الله سبحانه، وندب إليها، لما فيها من التوسعة، والفرج للمكروب، والإغاثة للملهوف، كما ندب إلى الإصلاح بين الخصمين.

بل لم يزل يُحذر من الخداع والمكر والنفاق، ومشابهة أهل الكتاب باستحلال محارمه بأدنى الحيل.

فصل: كل صاحب باطل لا يتمكن من ترويج باطله إلا بإخراجه في قالب حق.

قال رحمه الله: أخرجت الفسقة والذين يتبعون الشهوات الفسوق والمعاصي في قالب الرجاء وحسن الظن بالله تعالى، وعدم إساءة الظن بعفوه، وقالوا: تجنب المعاصي والشهوات إزراء بعفو الله تعالى، وإساءة للظن به، ونسبة له إلى خلاف الجود والكرم والعفو.وأخرجت الخوارج قتال الأئمة، والخروج عليهم بالسيف في قالب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وأخرج أرباب البدع جميعُهم بدعهم في قوالب متنوعة، بحسب تلك البدع.

فكل صاحب باطل لا يتمكن من ترويج باطله إلا بإخراجه في قالب حق.

-(٤٣)

من مكايد الشيطان: ما فَتَن به عُشاق الصور

قال رحمه الله: ومن مكايده ومصايده: ما فتن به عُشَّاق الصور:

وتلك لعمر الله الفتنة الكبرى، والبلية العظمى، التي استبعدت النفوس لغير خلاقها، وملكت القلوب لمن يسومها الهوان من عشاقها، وألقت الحرب بين العشق والتوحيد، ودعت إلى موالاة كل شيطان مريد، فصيرت القلب للهوى أسيراً، وجعلته حاكماً وأميراً، فأوسعت القلوب محنة، وملأتها فتنة، وحالت بينها وبين رُشدها، وصرفتها عن طريق قصدها.

فيا حسرة المحب الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمن بخس، وشهوة عاجلة، ذهبت لذتها، وبقيت تبعتها، وانقضت منفعتها وبقيت مضرتها، فذهبت الشهوة وبقيت الشقوة، وزالت المسرة وبقيت الحسرة

فالمحب بمن أحبه قتيل، وهو له عبد خاضع ذليل، وإن دعاه لباه، وإن قيل له: ما تتمنى ؟ فهو غاية ما يتمناه، ولا يأنس بغيره ولا يسكن إلى سواه.

فصل: الملائكة الموكلة بالإنسان

قال رحمه الله: دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات.

والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره، لهم وله شأن آخر، فإنهم مُوكلون بتخليقه، ونقله من طور إلى طور، وتصويره، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه، وعمله، وأجله، وشقاوته، وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته، وعرضها على خالقه وفاطره، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ وبعد البعث. ـ(٤٤)

وهم الموكلون بعمل آلات العذاب، وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله، والمعلمون له ما ينفعه، والمقاتلون الذابون عنه، وأولياؤه في الدنيا والآخرة، وهم الذين يُرُونه في منامه ما يخافُهُ ليحذره، وما يُحبُّه ليقوى قلبه، ويزداد شكراً، وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه إليه، وينهونه عن الشر ويحذرونه منه.

فهم أولياؤُه وأنصاره، وحفظته، ومُعلموه، وناصحوه، والداعون له، والمستغفرون له، وهو الذين يُصلون عليه ما دام في طاعة ربه، ويُصلون عليه ما دام يُعلِّم الناس الخير، ويُبشرونه بكرامة الله تعالى في منامه، وعند موته، ويوم بعثه، وهم الذين يزهدونه في

الدنيا، ويرغبونه في الآخرة، وهم الذين يذكرونه إذا نسي، وينشطونه إذا كسل، ويثبتونه إذ جزع، وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته.

فصل: المحبة هي التي تحرك المحب في طلب محبوبه

قال رحمه الله: فالمحبة هي التي تحركُ المحبَّ في طلب محبوبه الذي يكمل بحصوله له، فتُحرك مُحب الرحمن، ومُحب القرآن، ومُحب العلم والإيمان...ومحب النسوان والمردان، محب الأوطان، ومحب الإخوان، فتثير من كل قلبٍ حركة إلى محبوبه من هذه الأشياء، فيتحرك عند ذكر محبوبه منها دون غيره، ولهذا تجد محب النسوان والصبيان، ومحب قرآن الشيطان بالأصوات والألحان، لا يتحرك عند سماع العلم وشواهد الإيمان، ولا عند تلاوة القرآن حتى إذا ذُكِر له محبوبه اهتز له وربا..فكل هذه المحاب باطلة سوى محبة الله وما والاها من محبة رسوله وكتابه ودينه وأوليائه.

فصل: المحبة النافعة والمحبة الضارة

قال رحمه الله: المحبة النافعة: هي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه من السعادة والنعيم.

والمحبة الضارة: هي التي تجلب لصاحبها ما يضره من الشقاء والألم والعناء.

ـ(٤٥)

فصل: الناصح لنفسه لا يُؤثرُ محبة ما يضره

قال رحمه الله: الحي العالم الناصح لنفسه لا يُؤثرُ محبة ما يضره، ويشقى به، ويتألم به، ولا يقع في ذلك إلا من فساد تصوره ومعرفته، أو من فساد قصده وإرادته، فالأول: جهل، والثاني: ظلم.والإنسان خلق في الأصل ظلوماً وجهولاً، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويُلهمه رُشده، فمتى أراد به الخير علّمه ما ينفعه، فخرج به من الجهل، ونفعه بما علمه، فخرج من الظلم. ومتى لم يُرد به خيراً أبقاه على أصل الخلقة.

فصل: العبدُ أحوجُ شيء إلى معرفة ما يضُره ليجتنبه، وما ينفعه ليحرص عليه

قال رحمه الله: إذا تبين هذا، فالعبدُ أحوجُ شيء إلى معرفة ما يضُره ليجتنبه، وما ينفعه ليحرص عليه ويفعله، فيُحب النافع، ويُبغض الضار، فتكون محبته وكراهته موافقتين لمحبة الله تعالى وكراهته، وهذا من لوازم العبودية والمحبة، ومتى خرج عن ذلك أحب ما يُسخط ربه، وكره ما يحبه، فنقصت عبوديته بحسب ذلك.

وها هنا طريقان: العقلُ والشرع،أما العقل: فقد وضع الله سبحانه في العقول والفطر واستحسان الصدق والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة ومكارم الأخلاق وأداء الأمانات وصلة الأرحام، ونصيحة الخلق، والوفاء بالعهد، وحفظ الجوار، ونصر المظلوم...ووضع في العقول والفطر استقباح أضداد ذلك.

والطريق الثاني لمعرفة الضار والنافع من الأعمال السمعُ، وهو أوسع وأبينُ وأصدق من الطريق الأول.فأعلم الناس وأصحهم عقلاً ورأياً واستحساناً: من كان عقله ورأيه واستحسانه وقياسه موافقاً للسنة لأن الرأي المخالف للسنة جهل..فصاحبه ممن اتبع هواه بغير هُدى من الله وغايته الضلال في الدنيا والشقاء في الآخرة.

(٤٦)-

فصل: أنواع المحبة النافعة والمحبة الضارة

قال رحمه الله: المحبة النافعة ثلاثة أنواع: محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة ما يعين على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته.

والمحبة الضارة ثلاثة أنواع: المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله تعالى أو تنقصها.

فهذه ستة أنواع، عليها مدار محاب الخلق:

فمحبة الله عز وجل: أصل المحاب المحمودة ، وأصل الإيمان والتوحيد، والنوعان الآخران تبع لها.

والمحبة مع الله: أصل الشرك والمحاب المذمومة، والنوعان الآخران تبع لها.

ومحبة الصور المحرمة وعشقها من موجبات الشرك، وكلما كان العبد أقربَ إلى الشرك وأبعد من الإخلاص كانت محبته بعشق الصور أشدَّ، وكلما كان أكثر إخلاصاً وأشدَّ توحيداً كان أبعد من عشق الصور.

فصل: سخرية الشيطان بالمفتونين بالصور

قال رحمه الله: ومن أبلغ كيد الشيطان وسُخريته بالمفتونين بالصور: أنه يمني أحدهم أنه إنما يحب ذلك الأمرد أن تلك المرأة الأجنبية لله تعالى، لا لفاحشة.

(٤٧)-

فصل: قد يقترن بالأيسر إثماً ما يجعله أعظم إثماً مما هو فوقه

قال رحمه الله: ومما ينبغي أن يُعلم: أنه قد يقترن بالأيسر إثماً ما يجعله أعظم إثماً مما هو فوقه.

مثاله: أنه قد يقترن بالفاحشة من العشق الذي يوجب اشتغال القلب بالمعشوق، وتألهه له وتعظيمه، والخضوع له، والذل له، وتقديم طاعته وما يأمر به على طاعة الله تعالى ورسوله وأمره، فيقترن بمحبة خدنه وتعظيمه، وموالاة من يواليه، ومعاداة من

يعاديه، ومحبة ما يحبه، وكراهة ما يكرهه، ما قد يكون أعظم ضرراً على صاحبه من مجرد ركوب الفاحشة.

والزنى بالفرج وإن كان أعظم من الإلمام بالصغيرة، كالنظرة والقبلة واللمس، لكن إصرار العاشق على محبة الفعل وتوابعه ولوازمه، وتمنيه له، وحديث نفسه به أنه لا يتركه، واشتغال قلبه بالمعشوق: قد يكون أعظم ضرراً من فعل الفاحشة مرةً بشيء كثير، فإن الإصرار على الصغيرة قد يساوى إثمه إثم الكبيرة، أو يربي عليها.

وأيضاً فإن تعبد القلب للمعشوق شرك، وفعل الفاحشة معصية، ومفسدة الشرك أعظمُ من مفسدة المعصية.

وأيضاً فإنه قد يتخلص من الكبيرة بالتوبة والاستغفار، وأما العشقُ إذا تمكن من القلب فإنه يعزّ عليه التخلص منه.

وإذا كان الشيطانُ يريدُ أن يوقع العدواة والبغضاء بين المسلمين في الخمر والميسر، ويصُدهم بلك عن ذكر الله وعن الصلاة، فالعدواة والبغضاء والصد الذي يُوقعه بالعشق أعظم بكثير.

(٤٨)-

فصل: الفتنة محك الإيمان وبها يتبين الصادق من الكاذب

قال رحمه الله: قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر...في قوله: ﴿ ثُمَّ إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا﴾ [النحل:١١٠] فليس لمن فتن دواء مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة ممحِّصة له، ومُخلصة من الذنوب، كما يُخلص الكيرُ خبث الذهب والفضة.

فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب.

قال تعالى: ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [العنكبوت:٣]

فالفتنة قسمت الناس إلى صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمن ومنافق، وطيبٍ وخبيثٍ، فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر وقع في فتنةٍ أشدّ منها.

فالعبد في هذه الدار مفتون بشهواته، ونفسه الأمارة، وشيطانه المغوي المزين، وقُرنائه، وما يراه ويشاهده مما يعجز صبره عنه، ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين، وضعف القلب، ومرارة الصبر، وذوق حلاوة العاجل، وميل النفس إلى زهرة الحياة الدنيا، وكون العوض مؤجلاً في دار أخرى غير هذه الدار التي منها خلق، وفيها نشأ، فهو مكلف بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب طُلب منه الإيمان به.

(٤٩)-

فصل: فتنة الشبهات والوقاية منها

قال رحمه الله: والفتنة نوعان: فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات.

وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما.

ففتنة الشبهات: من ضعف البصيرة، وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد، وحصولُ الهوى، فهنالك الفتنة العظمى، والمصيبة الكبرى.

ولا يُنجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول، وتحكيمه في دقّ الدين وجله، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقى عنه حقائق الإيمان، وشرائع

الإسلام، وما يُثبتُه الله من الصفات والأفعال والأسماء، وما ينفيه عنه، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها، ومقادير نُصب الزكوات ومُستحقيها، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في دائرة العلم والعمل، لا يُتلقى إلا عنه، ولا يُؤخذ إلا منه، فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله، وكلّ ما خرج عنها فهو ضلال.

فإذا عقد قلبه على ذلك، وأعرض عما سواه، ووزنه بما جاء به الرسول، فإن وافقه قبله، لا لكون ذلك القائل قاله، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه ردّه، ولو قاله من قاله، فهذا الذي يُنجيه من فتنة الشُبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنة تنشأُ تارةً من فهم فاسدٍ، وتارةً من نقل كاذب، وتارةً من حقٍّ فائت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارةً من غرضٍ فاسد وهوى مُتبع، فهي من عمى في البصيرة، وفسادٍ في الإرادة.

ـ(٥٠)

فصل: فتنة الشهوات والوقاية منها

قال رحمه الله: وأما النوع الثاني من الفتنة ففتنة الشهوات.

وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشدَّ منكم قوةً وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضُتمُ كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾ [التوبة:٦٩] أي: تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها،

والخلاقُ: هو النصيب المقدر، ثم قال: ﴿ وخُضتُم كالذي خاضوا ﴾ فهذا الخوض بالباطل، وهو الشبهات.

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل.

فالأول: أصل فتنة الشبة، والثاني: أصل فتنة الشهوة.

ففتنة الشبهات: تُدفعُ باليقين، وفتنة الشهوات: تُدفع بالصبر.

فصل: من سلم من فتنة الشبهات والشهوات حصل له الهدى والرحمة

قال رحمه الله: إذا سلم العبدُ من فتنة الشبهات والشهوات حصل له أعظم غايتين مطلوبتين، بهما سعادته وفلاحه وكماله، وهما الهُدى والرحمة.

قال تعالى عن موسى وفتاه: ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا أتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾ [الكهف:٦٥] فجمع له بين الرحمة والعلم.

والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين: عاجلة وآجلة.

فأما العاجلة فما يعطيهم الله تعالى في الدنيا من محبة الخير والبر، وذوق طعم الإيمان، ووجدان حلاوته، والفرح والسرور بأن هداهم الله تعالى لما ضلّ عنه غيرهم..فهم يتقلبون في نور هداه، ويمشون به في الناس، ويرون غيرهم مُتحيراً في الظلمات.

(٥١)-

فصل: من مظاهر رحمة أرحم الراحمين بعباده

قال رحمه الله: ومما ينبغي أن يُعلم: أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك.

فمن رحمة الأب بولده: أن يكره على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويُرفهُه ويُريحه.

ولهذا كان من إتمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه، ومنعه من كثير من أعراضه وشهواته: من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظُلمه يتهم ربه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه.

فمن رحمته سبحانه بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمةً وحميةً، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد، ولا بُخلا منه عليهم بما نهاهم عنه، فهو الجواد الكريم.

ومن رحمته: أن نغّص عليهم الدنيا وكدَّرها، لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في دار جواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليُعطيهُم، وابتلاهم ليُعافهُم، وأماتهم ليُحييهم.

ومن رحمته بهم: أن حذرهم نفسه، لئلا يغتروا به، ويعاملوه بما لا تحسُنُ معاملته به، قال الله تعالى: ﴿ ويُحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾ [آل عمران:٣٠]

قال غير واحد من السلف: من رأفته بالعباد حذرهم الله من نفسه، لئلا يغتروا به.

(٥٢)-

فصل: ما يصيب العبد من مصائب فبسبب ذنوبه

قال رحمه الله: إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله أو بإدالة عدُوه عليه، فإنما هي بذنوبه، إما بترك واجبٍ، أو فعل محرمٍ، وهو من نقص إيمانه.

وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثير من الناس على قوله تعالى: ﴿ ولن يجعَلَ الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ [النساء: ١٤١] فالتحقيق...أن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوه من طاعة الله تعالى.

فالمؤمن عزيز عالٍ مُؤيد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، ظاهراً، وباطناً.

فصل: من حِكَم ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم عليهم

قال رحمه الله: إن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم وكسرهم لهم أحياناً، فيه حِكَم عظيمة، لا يعلمها على التفصيل إلا الله عز وجل.

فمنها: استخراج عبوديتهم، وذُلهم لله، وانكسارهم له، وافتقارهم إليه، وسؤالهم نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائماً منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا، ولو كانوا دائماً مقهورين مغلوبين منصوراً عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبتهم تارة، وكونهم مغلوبين تارةً، فإذا غُلبوا تضرعوا إلى ربهم، وأنابوا إليه، وخضعوا له، وانكسروا له، وتابوا إليه، وإذا غَلَبوا أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوه، ونصروا أولياءه.

(٥٣)-

فصل: الصبر على أذى الناس

قال رحمه الله: الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات، وتصورات، واعتقادات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم

آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر...ففي الموافقة ألم وعذاب إذا كانت على باطل...ولا ريب أن ألم المخالفة لهم في باطلهم أسهلُ وأيسرُ من الألم المُترتب على موافقتهم.

واعتبر هذا بمن يطلبون منه الموافقة على ظلم، أو فاحشة، أو شهادة زُور، أو المعاونة على محرم، فإن لم يوافقهم آذوه وظلموه وعادوه، ولكن تكون له العاقبة والنصرة عليهم إن صبر واتقى، وإن وافقهم فراراً من ألم المخالفة أعقبه ذلك من الألم أعظم مما فرّ منه، والغالب أنهم يُسلطون عليه، فينالله من الألم منهم أضعاف ما ناله من اللذة أولاً بموافقتهم.

فمعرفة هذا ومراعاتُه من أنفع ما للعبد، فألم يسير يعقب لذةً عظيمة دائمة أولى بالاحتمال من لذةً يسيرة تُعقِبُ ألماً عظيماً دائماً، والتوفيق بيد الله.

فصل:من آثر راحته على التعب في سبيل الله أتعبه الله أضعاف ذلك في غير مرضاته

قال رحمه الله: من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته سلبه الله إياه، أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً وآجلاً، وإن حبسه وادخره منه التمتع به، ونقله إلى غيره، فيكون له مهنؤه وعلى مخلفه وزره.

وكذلك من رفه بدنه...وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله، أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب.

ـ(٥٤)

فصل: محبة الله جل جلاله أصل الدين

قال: محبة الله سبحانه والأُنس به، والشوق إلى لقائه، والرضا به وعنه، أصل الدين.

وهو سبحانه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته، التي تتضمن كمال محبته، وكمال تعظيمه، والذلّ له، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، وعلى ذلك وضع الثواب والعقاب وأُسّست الجنةُ والنار وانقسم الناس إلى شقيٍّ وسعيد.

فلا شيء أحبُّ إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها، ومميتها ومحييها، فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح وسرور النفس وقوت القلوب ونور العقول وقرة العيون، وعمارة الباطن.

فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزكية أحلى ولا ألذَ ولا أطيب ولا أسرُّ ولا أنهم من محبته والأنس به والشوق إلى لقائه.

والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتمّ من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب، وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يُعرفُ إلا بالذوق والوجد، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حبّاً لغيره، ولا أُنساً به، وكلما ازداد له حباً ازداد له عبودية وذلاً وخضوعاً ورقاً له، وحرية عن رقِّ غيره.

فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا يتنعم ولا يبتهج ولا يلتذُّ ولا يطمئنُّ ولا يسكن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه ولو حصل له جميع ما يلتذُّ به من المخلوقات لم يطمئن إليها ولم يسكن إليها بل لا تزيده إلا فاقة وقلقاً حتى يظفر بما خُلق له، وهُيّئ له، من كون الله وحده نهاية مراده وغاية مطالبه.

ـ(٥٥)

وما مؤمن إلا وفي قلبه محبة الله تعالى، وطمأنينة بذكره، وتنعم بمعرفته، ولذة وسرور بذكره، وشوق على لقائه، وأُنس بقربه، وإن لم يحُسّ به لاشتغال قلبه بغيره، وانصرافه

على ما هو مشغول به، فوجود الشيء غير الإحساس والشعور به، وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصانه هو بحسب قوة الإيمان وضعفه وزيادته ونقصانه.

فإذا عُرف هذا فالعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته ولذته تكون تلك اللذة والحلاوة الإيمانية قد استترت عنه وتوارت أو نقصت أو ذهبت فإنها لو كانت موجودة كاملة لما قدم عليها لذة وشهوة لا نسبة بينها بوجه ما بل هي أدنى من حبة خردل بالنسبة إلى الدنيا وما فيها.

ولهذا تجد العبد إذا كان مخلصاً لله، منيباً إليه، مطمئناً بذكره، مشتاقاً إلى لقائه..منصرفاً عن هذه المحرمات، لا يلتفت إليها، ولا يعول عليها.

فصل: كيد الشيطان لنفسه

قال رحمه الله: أما كيده لنفسه: فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم عليه السلام كان في امتثال أمره وطاعته سعادتُه وفلاحه وعزُّه ونجاته، فسوَّلت له نفسه الجاهلة الظالمة أن في سجوده لآدم عليه السلام غضاضة عليه، وهضماً لنفسه، إذ يخضع ويقعُ ساجداً لمن خُلق من طين، وهو مخلوق من نار.

فلما قام بقلبه هذا الهوس، وقارنه الحسد لآدم لما رأى ربه سبحانه قد خصّه به من أنواع الكرامة...اشتعلت في قلبه نيران الحسد، فعارض النص بالمعقول بزعمه..فأعرض عن النص الصريح، وقابله بالرأي الفاسد القبيح...فجمع بين الجهل والظلم، والكبر والحسد والمعصية...فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها..وأذلها من حيث أراد عزتها، وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها.

(٥٦)ـ

فصل: من بُلي فتاب واستغفر فقد هدى

قال رحمه الله: بُلي العدو بالذنب فأصرّ، واحتج وعارض الأمر، وقدح في الحكمة، ولم يسأل الإقالة، ولا ندم على الزلة، وبُلي الحبيب بالذنب، فاعترف وتاب وندم، وتضرع واستكان وفزع إلى مفزع الخليقة، وهو التوحيد والاستغفار، فأُزيل عنه العيب، وغُفر له الذنب، فقُبل منه المتاب، وفُتح له من الرحمة والهداية كل باب، ونحن الأبناء، ومن أشبه أباه فما ظلم، ومن كانت شيمتُهُ التوبة والاستغفار فقد هُدى لأحسن الشيم.

فصل: أسباب تلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام

قال رحمه الله: وتلاعُبُ الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة: تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم.

فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى، الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم...وأشدّ الأمم في هذا النوع من الشرك: الهند.

وطائفة أخرى: اتخذت للقمر صنماً، وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي.

ومن أسباب عبادتها: أن الشياطين تدخل فيها، وتخاطبهم منها، وتخبرهم ببعض المغيبات، وتدُلُّهم على بعض ما يخفى عليهم، وهم لا يشاهدون الشياطين فجهلتهم وسقطهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم المخاطب! وعقلاؤهم يقولون: إن تلك روحانيات الأصنام! وبعضهم يقول: إنها ملائكة.

وبالجملة فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان، ولم يتخلص منها إلا الحُنفاء أتباع ملة إبراهيم عليه السلام.

(٥٧)ـ

فصل: من صور تلاعب وكيد الشيطان بالمشركين

ومن كيده وتلاعبه: ما تلاعب بعباد النار، حتى اتخذوها آلهةً معبودةً...وهم أصناف مختلفة: فمنهم: من يُحرم إلقاء النفوس فيها وإحراق الأبدان بها، وهم أكثر المجوس، وطائفة أخرى منهم من تبلغ بهم عبادتهم لها إلى أن يُقربوا أنفسهم وأولادهم لها..ومنهم: زُهاد وعباد، يجلسون حول النار صائمين عاكفين عليها.

ومن كيده وتلاعبه: تلاعبه بطائفة أخرى تعبُدُ الماء من دون الله، وتُسمى الحلبانية، وتزعم أن الماء لما كان أصل كل شيء...فكان حقه العبادة.

ومن تلاعبه: تلاعبه بعباد الحيوانات الناطقة، فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر وطائفة عبدت البشر الأحياء والأموات وطائفة تعبد الشجر وطائفة تعبد الجن

ومن تلاعبه بهم: أن زيَّن لقوم عبادة الملائكة، فعبدوهم بزعمهم، ولم تكن عبادتهم في الحقيقة لهم، ولكن كانت للشياطين، فعبدوا أقبح خلق الله وأحقهم باللعن والذم

قال تعالى: ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سُبحانك أنت ولينا من دُونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]

والمجوس تُعظم الأنوار والنيران والماء والأرض، ويقرون بنبوة (زرادشت) وهم فرق شتى، منهم: المزدكية...وهؤلاء يرون الاشتراك في النساء، والمكاسب، كما يشترك في الهواء والطرق وغيرها...ومنهم: الخزمية..وهم شر طوائفهم لا يقرون بصانع، ولا معادٍ، ولا نبوةٍ، ولا حلالٍ، ولا حرام...وعلى مذهبهم: طوائف القرامطة، والإسماعيلية والنصيرية، والدرزية، وسائر العبيدية الذين يسمون أنفسهم الفاطمية، وهم من أكفر الكفار.

ـ(٥٨)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الباب الأول: في انقسام القلوب إلى صحيحٍ وسقيمٍ وميت	٥
الباب الثاني: في ذكر حقيقة مرض القلب	٦
الباب الثالث: في انقسام أدوية أمراض القلب إلى: طبيعة وشرعية	٧
الباب السادس: لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون إلهه وفاطره وحده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه	٨
الباب السابع:القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه	٩
الباب الثامن: في زكاة القلب	١١
الباب التاسع: في طهارة القلب من أدرانه ونجاسته.	١٢
فصل: نجاسة الشرك والزنى واللواط	١٤
الباب العاشر: في علامات مرض القلب وصحته	١٥
الباب الحادي عشر:في علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه	١٨
فصل: من أضرار عدم محاسبة النفس	١٩
فصل: فوائد محاسبة النفس	٢٠
الباب الثاني عشر: في علاج مرض القلب بالشيطان	٢١
الباب الثالث عشر: في مكايد الشيطان التي يكيد بها ابن آدم	٢٢
من مكايد الشيطان: أنه يورد الإنسان الموارد ثم يتخلى عنه	٢٣

()-

من مكايد الشيطان: التخويف بأوليائه	٢٤

من مكايد الشيطان: سحر العقل	٢٤
من مكايد الشيطان: أنه كاد للأبوين بالأيمان الكاذبة	٢٥
من مكايد الشيطان: أمره إما بتفريط وتقصير، أو مجاوزة وغلو	٢٥
من مكايد الشيطان: إيقاع جهال المتصوفة في الأباطيل والترهات	٢٧
من مكايد الشيطان تحسينه لأرباب الزهد العمل بهاجسهم دون الشرع	٢٨
من مكايد الشيطان: أمره بلزوم زي واحد ومكان معين للصلاة	٢٩
من مكايد الشيطان: الوسواس	٣٠
من مكايد الشيطان: الفتنة بالقبور	٣١
فصل: من مفاسد اتخاذ القبور أعياداً	٣٣
فصل: الأسباب التي أوقعت عباد القبور في الفتنة بها	٣٥
فصل: ما نصبه للناس من الأزلام والأنصاب	٣٦
فصل: القلوب إذا أعرضت عن السنن وقعت في البدع	٣٧
من مكايد الشيطان: سماع الغناء	٣٨
فصل: سماع الغناء من المرأة الأجنبية	٣٩
فصل: الغناء يُنبت النفاق في القلب	٣٩
من مكايد الشيطان: الحيل، والمكر، والخداع	٤٠
فصل: الشريعة جاءت بسد الذرائع إلى المحرمات	٤٢
فصل ما شرعه الله لنا من الحنفية السمحة ما يغني عن طرق المكر والاحتيال	٤٢

()-

فصل: كل صاحب باطل لا يتمكن من ترويج باطله إلا بإخراجه في	٤٣

قالب حق.	
من مكايد الشيطان: ما فَتَن به عُشاق الصور	٤٤
فصل: الملائكة الموكلة بالإنسان	٤٤
فصل: المحبة هي التي تحرك المحب في طلب محبوبه	٤٥
فصل: المحبة النافعة والمحبة الضارة	٤٥
فصل: الناصح لنفسه لا يُؤثرُ محبة ما يضره	٤٦
فصل: العبدُ أحوجُ شيء إلى معرفة ما يضُره ليجتنبه، وما ينفعه ليحرص عليه	٤٦
فصل: أنواع المحبة النافعة والمحبة الضارة	٤٧
فصل: سخرية الشيطان بالمفتونين بالصور	٤٧
فصل: قد يقترن بالأيسر إثماً ما يجعله أعظم إثماً مما هو فوقه	٤٨
فصل: الفتنة محك الإيمان وبها يتبين الصادق من الكاذب	٤٩
فصل: فتنة الشبهات والوقاية منها	٥٠
فصل: فتنة الشهوات والوقاية منها	٥١
فصل: من سلم من فتنة الشبهات والشهوات حصل له الهدى والرحمة	٥١
فصل: من مظاهر رحمة أرحم الراحمين بعباده	٥٢
فصل: ما يصيب العبد من مصائب فبسبب ذنوبه	٥٣
فصل: من حِكَم ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم عليهم	٥٣

()-

فصل: الصبر على أذى الناس	٥٤

فصل: محبة الله جل جلاله أصل الدين	٥٥
فصل: كيد الشيطان لنفسه	٥٦
فصل: من بُلي فتاب واستغفر فقد هدى	٥٧
فصل: أسباب تلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام	٥٧
فصل: من صور تلاعب وكيد الشيطان بالمشركين	٥٨
الفهرس	٥٩

()-